صور من الحياة :

حماقة أب

للأستاذ كامل محمود حبيب

أتذكر — ياصاحبي — يوم أن جذبك أبوك من خضم الأزهر وأنت فتى في ريق الشباب فارع القوام قوى البنية وثيق الأركان ، جذبك بعد أن عشت في رحابه سنوات تضطرب في متاهات العلم فلا تستقر ، وتضل في مضلات المدنية فلا تهتدي ، وتخضع لقسوة الشيخ فلا تسمح ، وتفزع من حلقة الدرس فلا تطمئن . لقد كان يمتريك لأنك ابنه الأصغر فأرسلك إلى الأزهر عسى أن يراك — بعد حين — شيخاً ، كعمك ، تتألق في الجبة والقفطان وتزهو في العمة واللحية ، فتكون قبساً من نور العلم في القرية ، ونفحة من ضياء الهدى في المجلس ، وموعظة طيبة في ضلال الجهل . ولكن بدا له أن يجذبك من الأزهر قبل أن تبلغ النهاية ؛ لتتزوج من فتاة في مثل سنك فيها الثراء والجمال ، وفي أهلها الجاه والسلطان وفي ذويها العزة والمنعة . فصحبته إلى القرية والخيال الخلوب يثب في رأسك ، وإن إهابك ليكاد ينشق من شدة الفرح وهو يتألق على جبينك ، وإن خواطرك لتتزى مرحاً جامحاً ترتسم سماته على قسمات وجهك ، وإن ذهنك ليضطرب في آفاق جميلة من النشوة واللذة . وأحسست في أعماق نفسك — وأنت في طريقك إلى القرية — أنك اليوم تفر من قسوة الشيخ وعنت الدرس ، وتنأى عن خشونة العيش وجفوة التربة ، لتعيش إلى جانب أمك تستشعر العطف والحنان ؛ وأنك ستفر — غداً — من سطوة أبيك وهو غليظ الكبد جافي الطبع جامد الكف ، لتصير رجلاً ...

وجاءت الزوجة تحمل إليك متعة القلب وراحة النفس ، وتزف إليك سعة العيش وسعادة الحياة ، وتنزع عنك ذل الحاجة لأبيك ، وتلبسك ثوب الرجولة الباكرة ، وتحطم أغلالا من الإصار كبلك بها أبوك زماناً ، فأصبحت حر اليد واللسان ، طليق الأخذ والعطاء ، لا يقيدك غل من سلطان أبيك ، ولا تمسكك ربقة من جفوته ، فاطمأنت نفسك وهدأت توازعك . ومرت السنون .

وانطلقت في فورة الشباب إلى النيط مجالدة في العمل وتحس السعادة في الجهد ، لا تشغلك اللذة الوضيعة ولا يصرفك اللهو الرخيص ، وأنت من بيت فيه الصلاح والدين وفيه الترفع والكبرياء ؛ فقاض جيبك بالمال وفهقت دارك بالنعمة وطفح قلبك بالرضا . وجذبك سماء المال عن أن تلتفت إلى وراء ، ساعة من زمان ، لترى أخوتك يتقسمون تراث أبيك وهو ضئيل لا يسمن من جوع ولا يغني من عرى . وجدت مشاعرك فما بسطت كفك لواحد منهم بقرش ولا حق قلبك على طفل من أبنائهم ، فعشت عمراً من عمرك منطوياً على نفسك لا تزع من أهلك غمة ولا تفرج كربة ولا تمسح لوعة ، على حين أنك تنعم بوفرة الثراء وتسعد بكثرة المال . وهم يجدون ضيق اليد وكثرة العيال .

وابتسمت لك الحياة مرة أخرى فإذا أنت أب ؛ فأشرق النور في قلبك لدى مطلع الصبي ، وانفرجت أسارير وجهك ، فأخذت تربيه على نسق من الفساد يطم على العقل دلالاً منك ، وتنشئه على نهج من الضلال يعبث بالرأي رحمة به ، وتصوغه في قالب من التي يعصف بالأدب عطفاً عليه ؛ وإلى جانبك زوجك تدلل الصبي وتغريه وتدفعه إلى أن يتردى في الجهل ويلج في الغباوة ، فانطلق على سفنه يتسعر في لجة من الحمق والسفاهة . وأنت — ياصاحبي — تنظر فلا تردعه عن غواية ولا ترده عن نزوة .

وتراءى لك أن الصبي يخطو إلى الشباب في غير ريث ، ويسير إلى الفتوة في غير مهل ، فأشفقت عليه من عصا المعلم أن تهشم عظمه ، وشننت به على ظلام المدرسة أن تهد من قوته ، فأمسكته إلى جانبك يرتشف من غفلتك ويرتضع من حمقك ، فسقط في مهاوي الجهل يعاشر البهيمة في النيط ويهفو إلى رفاق السوء في القرية . فأخذ بأسباب اللهو الوضيع وارتدع في حمأة الرذيلة ، وأنت في عمى عنه ، والناس من حواليك يتهامسون بحديث ابنك الوحيد وهو ينفق عن سعة وينذل في سخاء ، يسف في طيش ويسفل في دعوة . يتهامسون ولا يجرؤ واحد على أن ينفض أمامك بجلة حاله خشية أن ينالك عند الحديث أو تؤذيك قسوة الخبر ، فانضمت الشفاه على

عبارات السخط والكراهية وسكتت الألسن عن كلمات المقت والازدراء

وذهبت أنت تصحب وحيدك — بين الفينة والفينة — إلى الحقل تبصره بالعمل وتثقفه بالفلاحة وتعلمه حاجات النيط وتزوده بالنصيحة . علك تجد فيه العون والساعد إن وهى جلدك أو انحطت قوتك ، فكان يلقى السمع إلى حديثك وذهنه هناك — هناك يلمس اللذة الجارفة من الملذات الحرام ، ويقتبس عن سلوة عارمة من أسباب الطيش ، فخيل إليك أن الشاب أصبح رجلا يستطيع أن ينهض بالعمل وأن يصرف الأمر ، فألقيت إليه بزمامك ، ودفعته فاندفع — اندفع إلى الهاوية .

واطمأنت نفسك حين جاء الشاب يقص عليك — أول مرة — قصة النيط وما فيه ، وينشر أمامك نواحي العمل ، ويبحث معك فنون الزراعة ، فتسهلت له في السؤال وتيسرت له في القول ، وأحس هو منك النفلة والضعف ، فانطلق في سبيله يبشر مالك في غير رفق ولا هوادة ، وركنت أنت إلى الراحة . وسكنت إلى العبادة لا يحزبك أمر ولا يرهقك طلب .

ووسوست لك زوجك ، وللمرأة لسان ناعم أملس كجلد الأفعى ، ولها حديث طلي يتسرب في مسالك القلب مثلما يسري سم الثعبان . فما لبثت أن زلت عن كل مالك ومالها لوحيدك الطائش . وغاب عنك أنك تدفع بمالك بين يدى لوثة الشباب وتقذف بمال زوجك إلى هوة الضياع .

وأحس الفتى أنه أصبح رب هذا البيت ، فأراد أن يمكر بك فيحول بينك وبين خلجات الريبة في قلبك وتزوات الظنة في نفسك ، فحباك بالمال — بادى ذى بدى — وأسبغ عليك من فيض غلاته وخصك بالطيب من الطعام وبالغالي من اللباس ، وأنت في مكانك لا تريم . فشكرت له عقله الراجح ، وحمدت له عطفه الوثاب ، وسعدت ببره السابغ .

ليتك — يا صاحبي — نظرت بعين الرجل العاقل المجرب إلى زلات ابنك الفتى وهو ينحط إلى القرك الأسفل من الرذيلة في غير وعى ولا عقل . إنه الآن يتملقك ليسدل على عينيك ستاراً كثيفاً من الخديعة لا تستشف من ورائه ما يخبىء لك القدر من ضيق ومحنة .

ومرت الأيام تصفعك بالشيخوخة الباكرة من طول ما ركنت إلى الراحة ، وتقذفك بالزمانة من طول ما خامرت الحركة ، فقوى عودك وانطوى بشرك وران عليك سحابة من الكآبة والحزن .

يا لقلبي ، لقد اعتراك الثراء عن أن تكسب العيش بالكد ، وصرفك الولد عن أن تقوم على شأنك بالجهد ، فقضيت سنوات من عمرى على كرسي وثير في ناحية من دارك الأنيقة بين رفاق الود وإخوان الصفاء ، فسرى الداء في مفاصلك يطحنك في غلظة ويقعدك في عجز . ونظرت حواليك فإذا أخوك الأكبر — وهو يكبرك بسنوات وسنوات — يسير على قدميه المسافات الطوال في قوة ونشاط لا يصيبه النصب ولا الإرهاق ، لأنه عاش عمره يصارع أمواج الحياة ويكافح شدائد الدنيا ، ليظفر بقوته وقوت عياله . فتمنيت لو أنك عشت مثله فقيراً لا تجد القوت إلا بالثمن المنال — بعرق الجبين .

ويل لك — يا صاحبي — لقد كفرت خواطرك بالنعمة التي سعدت بها زماناً . والتي رفعتك فوق أقرانك وسمت بك على أترابك ! فماذا يخبىء لك القدر جزاء ما كفرت ؟

وجاءك — بعد أيام — الخبر الأسود يقصم ظهرك ويهد ركنك ويصدع بصيابة من الأمل كنت تتراجاها . جاءك الخبر الأسود يقول : إن البنك العقاري قد استولى على كل ما تملك أنت وزوجك وفاء دين ابنك الفاجر النوى . وإن ابنك قد فر من القرية خشية أن يصمه عار الفقر وذل السؤال !

الآن ، فقدت المال والابن معاً ، أحوج ما تكون إليهما . فأصابك الندم على أن ألقيت بابنك في لجة من الجهل تجرفه في غير هوادة ولا رفق ، وعلى أن ألقيت بثروتك بين يدى غر أهوج يبددها في سنوات ، ثم يطير عنك ...

والآن ، ماذا يختلج في فؤادك — يا صاحبي — وأنت لقى في ناحية من الدار ، تتعاورك الهموم وتتناهبك الأسقام ، وتنوء تحت أثقال ثلاثة من الفاقة والشيخوخة والوحدة ...

كامل محمود حبيب